آيات البر والصلة ودعائم المجتمع في سورة الإسراء

قال الله تعالى:

(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ
تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا (٣٨)

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعنى[1]:

هذا قبس من نور الذكر الحكيم. يرسل فيملأ القلوب إيمانا واعترافا بأن ذلك القرآن من عند الله لا من عند محمد.

نعم ذلك بعض ما أوحى إلى ذلك النبي من الحكمة والموعظة الحسنة. وهذه الآيات تدلنا على أن محمد بن عبد الله ذلك الإنسان الذي نشأ في بيئة جاهلية بكل معاني الكلمة، بيئة، كل همها فتك وقتل وتخريب وإغارة وزنا وخمر، ووأد البنات مخافة الفقر أو العار لا يمكن أن يكون من عنده هذا النور، وهذا السمو في الخلق إذ فاقد الشيء لا يعطيه.

أهذه البيئة تخرج مثل ذلك النبي الذي يدعو في هذه الآيات إلى كل خير وبر، وينهى عن كل إثم وشر؟!! ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ولكنها المعجزة الباقية على أن هذا القرآن من عند الله لا من محمد وإلا فمن علمه ذلك؟

ومن عرفه الأسس والدعائم التي تبنى مجتمعا صالحا طيبا، فلو اجتمع فلاسفة الأخلاق في القرن العشرين ليبنوا مجتمعا صالحا أتراهم يوصون بهذه الدعائم؟!! هذه الآيات بدئت بالنهى عن الشرك ثم بالأمر بالإحسان إلى الوالدين إلى آخر ما فيها من معان سامية ثم اختتمت كذلك بإثبات أن ذلك وحى من عند الله بالنهى عن الشرك، وبيان الجور في حكمهم أن لله البنات ولهم البنين، وفي النهاية الكلام على القرآن الكريم.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا السياق القرآني يرشدنا إلى خطر الشرك بالله وأن هذه الأوامر والنواهي مما يخالفه الذين ويحث عليه، ويبين لنا أن القرآن الكريم قد صرفه الله على أحسن وجه وأكمله ليتذكروا، ولكن ما يزيدهم ذلك إلا نفورا واستكبارا.

والمناسبة بين هذه الآيات والتي قبلها ظاهرة حيث تكلم القرآن على من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ثم أردف ذلك ببيان السعي الموصل للآخرة بالتفصيل، مع الكلام على الشرك المحبط للأعمال، وهاكم الآيات بالتفصيل.

- التوحيد:

لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا. وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه....

والخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم لبيان أهمية الخبر وخطورته وهو لكل مخاطب لكل أحد، والمعنى: لا تجعل مع الله الذي خلقك ورزقك إليها آخر على أية صورة وبأي شكل فهو وحده الذي يجب أن يعبد، إنك إن اتخذت إليها آخر تكن مذموما من الله والملائكة والناس أجمعين ومخذولا من الله حيث عبدت غيره ومن الشريك لأنه لا يملك نفعا ولا ضررا، وقد قضى ربك، وحكم حكما لا نقض فيه ولا رجوع أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له. إذ هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

- الإحسان إلى الوالدين:

... وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقضى ربك بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانا كاملا في المعاملة، إحسانا ليس بعده إحسان إذ يجتمع فيهما كل أسباب المودة والعطف، فمن قرابة قريبة، إلى صلة وشيجة وجوار كريم، وعطف سابغ، وحنان أبوى سليم، ولا عجب فيهما أول من يعطف عليك عطفا غريزيا وأنت في أشد الحاجة إليه، فمن المروءة أن ترد الجميل لا أقول بأحسن منه فليس هناك جميل يوازى عملهما، ولهذا ترى القرآن الكريم يجمع بين الأمر بعبادة الله والأمر بالإحسان إليهما وفي آية أخرى يقول. أنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ولا غرابة فوالداك هما اللذان كونا الظاهر من جسمك، والله الذي خلقك وسواك ونفخ فيك من روحه. اعبده وحده ولا تشرك به شيئا واحسن إلى والديك إحسانا يكافئ ما قماه لك، وهذا الأمر بالإحسان عام في كل حال، ووضعه هنا دليل على أنه من دعائم الدين وأصوله، وهناك أوضاع خاصة تقتضي التنصيص عليها بخصوصها مثلا:

إن يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما كلمة ضجر أو تألم، والكبر ملازم للضعف والعجز والحاجة إلى المعين والناصر الذي يتغاضى عن العيب والأذى اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً.

وليس النهى عن التضجر والتألم خاصا بحالة الكبر بل في كل حال خصوصا التي يتهاون فيها الولد بأبيه لضعفه وعجزه عن الكسب.

وقل لهما قولا لينا لطيفا، مع حفظ الكرامة، والأدب والحياء. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وهذه كناية عن حسن رعايتهما، وتدبير أمرهما فكأنه قال: واضممها إلى نفسك كما فعلا بك وأنت صغير وتواضع لهما، وألن جانبك معهما،

ممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

لهما الجناح الذليل من أجل فرط الشفقة بهما، والعطف عليهما إذ هما في حاجة إلى عطف من كان أفقرَ خلق الله إلى عطفهما.

ولا تكتف بهذا بل قل رب ارحمهما، وتجاوز عن سيئاتهما فإنهما رباني صغيرا.

ولك ترى أن الله بالغ في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود العاقين.

وفي السنة الكريمة : قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»

وقوله: «أتانى جبريل فقال: يا محمد، رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك قل: آمين. فقلت: آمين ثم قال: رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قل: آمين. فقلت: آمين» .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً وهذا تذييل يعلمنا أن العبرة بالقلب، وما فيه، فإن بدرت منه بادرة لم تكن مقصودة منه فالله أعلم به، ولا يعاقبه عليه ما دامت نيته حسنة وهو من الصالحين، وإذا تبتم إلى الله وندمتم على ما فعلتم فاعلموا أن الله غفور للأوابين رحيم بهم.

حق ذوى القربى والمساكين وابن السبيل:

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ والخطاب في ذلك للنبي صلّى الله عليه وسلم تهييجا وإلهابا لغيره من الأمة والخطاب لكل من هو صالح لذلك، وحق ذوى القرابة هو صلة الرحم التي أمر الله بها مرارا، وهل الأمر للوجوب أو الندب وهل تجب للوالد فقط أولهما ولغيرهما من الأقارب كالأخوات وبنى الأعمام.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner